

## نَسَبُ النَّبِيِّ ﷺ الشَّرِيفِ وَأَسْرَتُهُ

## نَسَبُ النَّبِيِّ ﷺ :

قال الإمام البخاري: (هُوَ أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خَزِيمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ) (١) . .

وقال الذهبي في كتابه السيرة النبوية: وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بإجماع الناس لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء (٢) .

**الْأَسْرَةُ النَّبَوِيَّةُ:**

تُعرَفُ أسْرَتُهُ ﷺ بِالْأَسْرَةِ الْهَاشِمِيَّةِ ؛ نَسَبُهُ إِلَى جَدِّهِ هَاشِمٍ .

## ١- هَاشِمٌ:

تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف ، وكان مُوسِرًا ذَا شَرَفٍ كَبِيرٍ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَطْعَمَ الشَّرِيدَ لِلْحِجَابِ بِمَكَّةَ ، وَكَانَ اسْمُهُ عَمْرُو وَسُمِّيَ هَاشِمًا ؛ لِهُشْمَةِ الْخَبِزِ (٣) . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الرَّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ . .

وعندما خرج إلى الشام تاجرًا قدم المدينة وتزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي ابن النجار وأقام عندها ؛ ثم خرج إلى الشام فمات بغزة من أرض فلسطين وولدت سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧م وَسَمَّتُهُ شَيْبَةً ؛ لِشَيْبَةِ كَانَتْ فِي رَأْسِهِ . . وَجَعَلَتْ تُرْبِيَهُ فِي بَيْتِ أَبِيهَا بِبَثْرَبِ ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أُسْرَتِهِ بِمَكَّةَ .

وكان لهاشم أربعة بنين هُمُ: أسد وأبو صيفي ونضلة وعبد المطلب ، وخمس بنات هُنَّ: الشفاء والخالدة وضعيفة ورقية وجثة .

## ٢- عَبْدُ الْمُطَّلِبِ:

تولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد موت أخيه هاشم ، وكانت قريش تسميه

(١) الرحيق المختوم ص ٥٥ .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ١٥ .

(٣) هشم الخبز: كسره ؛ كما في المعجم الوجيز ص ٦٥٠ .

الفياض ؛ لسخائه . . ولَمَّا صار شيبه فوق سبع أو ثماني سنين سمع به المطلب فرحل في طلبه ، وقدم به مكة مردفه على بعيره ، فقال الناس: هذا عبد المطلب ، فقال لهم: ويحكم! . . هذا ابن أخي هاشم .

وبعد موت المطلب ولى بعده عبد المطلب ، فاغتصب عمه نوفل حقه فسأل رجالاً من قريش النصره على عمه ، فأبوا ، فأرسل إلى أخواله من بني النجار ، فسار خاله أبو سعد بن عدى إليه وناصره ؛ فاسترد حقه من عمه نوفل .

حفر بئر زمزم ووقعة الفيل:

- خلاصة الأولى:

أمر عبد المطلب في المنام بجفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام بجفرها فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء ، أي: السيوف والدروع والغزاليين من الذهب ، فضرب الأسياف بأبأ للكعبة ، وضرب في الباب الغزاليين صفائح من الذهب ، وأقام سقاية زمزم للحجاج . .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب ، وقالوا له: أشركنا ، قال: ما أنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به ؛ فخرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد هُدَيْم ، وكانت بأشراف الشام ، فلما كانوا في الطريق نفذ الماء فسقى الله عبد المطلب مطراً ، ولم ينزل عليهم قطرة ، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم فرجعوا ، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن أتاه الله عشرة أبناء ، وبلغوا أن يمنعه لينحرنَّ أحدهم عند الكعبة .

- خلاصة الثاني:

أن أبرهة الحبشى النائب العام عن النجاشي على اليمن ، لَمَّا رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها وسمع بذلك رجل من كنانة ، فدخلها ليلاً فلطخ قلبتها بالعدرة ؛ ولما علم أبرهة بذلك نار غيظه ، وسار بجيش عدده ستون ألف جندي ؛ ليهدم الكعبة ، واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة ، وكان عدد الفيلة ٩ أو ١٢ فيلاً ، ولما وصل بين المزدلفة ومنى برك الفيل ، ولم يقم ليتقدم إلى الكعبة ، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول ، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك . .

فبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل؛ ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في رجله أمثال الحمص، لا تصيب منهم أحداً إلا صارت تتقطع أعضاؤه وهلك، وليس كلهم أصابت، فخرجوا هارين يموج بعضهم في بعض، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

وكانت هذه الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين أو خمسة وخمسين - عند الأكثر - في أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م.

### ٣. عَبْدُ اللَّهِ:

أمه فاطمة بنت عمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونهم أخبرهم بنذره فأطاعوه، فقيل: إنه أقرع بينهم أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله، فقال: اللّهُمَّ هو أو مائة من الإبل ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على الإبل، وقيل: إنه كتب أسماءهم في القداح، وأعطاهم قيم هبل؛ فضرب القداح فخرج القداح على عبد الله فأخذه عبد المطلب: وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة؛ ليذبحه فمنعته قريش ولا سيما أخواله من بنى مخزوم وأخوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أسمع بنذري؟! فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشرة من الإبل؛ فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرة من الإبل؛ حتى يرضي ربه فإن خرجت على الإبل نحرها فرجع وأقرع بين عشر من الإبل ف وقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشرة عشرة ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة ف وقعت القرعة عليها فنحرت ثم تركت لا يرد عنها إنسان ولا سبع وكانت الدية في قريش وفي العرب عشرة من الإبل. . . فجرت بعد هذه الواقعة مائة من الإبل أقرها الإسلام وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» يعني: إسماعيل وأباه عبد الله.

اختار عبد المطلب لولده عبد الله أمته بنت وهب أفضل امرأه في قريش نسباً وموضعاً، فبنى بها في مكة . .

وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرًا فمات بها ، وقيل : بل خرج تاجرًا إلى الشام ، فأقبل في غير قريش ، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها وعمره خمس وعشرون سنة ، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ وبه يقول أكثر المؤرخين<sup>(١)</sup> . . .  
وقيل بل توفى بعد مولده ﷺ بشهرين أو أكثر<sup>(٢)</sup> .

### مِيلَادُ النَّبِيِّ ﷺ

#### مَوْلِدُهُ ﷺ :

قال ابن إسحاق: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل<sup>(٣)</sup> .

وعن ابن عباس وجابر - رضي الله عنهما - إنهما قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول ، وفيه عرج به إلى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات ، فهذا هو المشهور عند الجمهور . . والله أعلم .

وقد رُوِيَ أن إرهابات بالبعثة وقعت عند الميلاد فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخذت النار التي يعبدها الجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاصت وأنه ﷺ ولد محتونًا مسرورًا ، أي: مقطوع الحبل السُّرِّيُّ . . إلى آخر ما روى عن الإرهابات التي حدثت عند الميلاد .

وفي الحقيقة أن كل ذلك لم يصح ؛ ولم يأت خبر صحيح بحدوث أى شيء من ذلك ، فالثابت من خلال الأحاديث الصحيحة أن أم النبي ﷺ رأت نورًا يخرج منها فأضاء قصور الشام وذلك عند ولادته .

قال ﷺ : «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام» ؛ ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة ، ودعا الله وشكر له ، واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفًا في العرب - وختته يوم سابعه كما كان العرب يفعلون . .

(١) الرحيق المختوم ص ٥٦ - ٥٩ مختصرًا .

(٢) ابن هشام ص ١ / ١١١ ، الرحيق المختوم ص ٥٩ .

(٣) ابن هشام ١ / ١١١ .

وأول من أرضعته من المراضع - وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع ثوية مولاة أبي هب بلبن ابن لها يقال له: مسروح ، وكانت قد أرضعت - قبله - حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي .

### فِي بَنِي سَعْدِ :

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر؛ ولتقوى أجسامهم ، وتشتد أعصابهم ، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم ، فالتمس عبد المطلب ﷺ المراضع واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر ، وهي حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية ، وزوجها الحارث بن عبد العزى المكثى بأبى كبشة من نفس القبيلة . .

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة: عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهي الشيماء ، لقبٌ غلب على اسمها) وكانت تحضن رسول الله ﷺ مع أمها إذا كانت عندهم وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعاً في بني سعد بن بكر ، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ من جهتين ؛ من جهة ثوية ومن جهة السعدية <sup>(١)</sup> .

قال ابن إسحاق: كانت حليلة تحدث: إنها خرجت من بلدها مع زوجها ، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر ؛ تلتمس الرضعاء ، قالت: وذلك في سنة شهباء <sup>(٢)</sup> لم تبق لنا شيئاً ؛ قالت: فخرجت على أتان قمراء <sup>(٣)</sup> ، معنا شارف <sup>(٤)</sup> لنا ، والله ما تبض بقطرة <sup>(٥)</sup> ، وما ننام ليلنا أجمع من صبيبتنا الذى معنا من بكائه من الجوع ، ما فى ثديي ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكننا كُنَّا نرجو الغيث والفرج . . فخرجت على أتانى تلك فلقد أدمت بالركب <sup>(٦)</sup> حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً <sup>(٧)</sup> ؛ حتى

(١) الرحيق المختوم ص ٦٢ .

(٢) الشهباء: مجدة لا خضرة فيها ولا مطر .

(٣) قمراء: بيضاء .

(٤) شارف: الناقة المستة .

(٥) تبض بقطرة: تعطي قليلاً .

(٦) أدمت: طالت بها مسافة السير .

(٧) العجف: الهزال .

قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إنني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذه رضيعاً؛ والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاأخذه، قال: لا عليك أن تفعلني؛ عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة قالت: فذهبت إليه فأخذه، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذه رجعت به إلى رحلي؛ فلما وضعته في حجرى أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى . . .

ثم نام وما كنا ننام معه قبل ذلك وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل<sup>(١)</sup> فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعنا فتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت - أنا - أتاني وحملته عليها معي فولله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه من همورهم؛ حتى إن صواحيبي ليقُلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك! اربعي علينا<sup>(٢)</sup> أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى والله، إنها هي هي، فيقلن: والله إن لها لشأتنا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع؛ حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم أسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياغاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً<sup>(٣)</sup>، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير؛ حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شباعاً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً قالت: فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص على مكثه فينا، لِمَا كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه وقالت لها: لو تركت بُنيَّ

(١) الحافل: امتلاً ضرعها باللبن، وكثر لبنها .

(٢) اربعي علينا: ارفقي بنا .

(٣) لبناً: بضم فتشديد: معناها ممتلئة الضرع باللبن .

عندى ؛ حتى يغلظ ، فإني أغشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا<sup>(١)</sup> .

### حَادِثَةُ شَقِّ الصَّدْرِ:

وفى السنة الرابعة من مولده على قول المحققين ، بعد عودته إلى بنى سعد بأشهر على قول ابن إسحاق وقع حادث شق صدره<sup>(٢)</sup> .

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ<sup>(٣)</sup>: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءٍ زَمْزَمَ ثُمَّ لَامَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظَنْرَهُ فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُتَفَعِّعُ اللَّوْنِ<sup>(٤)</sup> ، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أُرْتَبِي أَنَّ ذَلِكَ الْمَخِيطُ فِي صَدْرِهِ وَقَدْ حَدَّثتُ - أَيْضًا - حَادِثَةَ شَقِّ الصَّدْرِ مَرَّةً أُخْرَى فِي رِحْلَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ<sup>(٥)</sup> .

### إِلَى أُمِّهِ الْحُنُونُ:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الواقعة فردته إلى أمه ، فكان عند أمه ؛ حتى بلغ ست سنين .

ورأت آمنة أن تزور قبر زوجها بيثرب ، فخرجت من مكة مع ولدها وأم أيمن وعبد المطلب ، فمكثت شهراً ثم قفلت ، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض فى أوائل الطريق ، ثم اشتد ؛ حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة<sup>(٦)</sup> .

### إِلَى جَدِّهِ الْعَطُوفِ:

وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب الذى كان يؤثره على أولاده ؛ قال ابن إسحاق: كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه ؛ إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتى

(١) ابن هشام (١ / ١١٣ : ١١٥) .

(٢) الرحيق المختوم ص ٦٣ .

(٣) (صحيح): مسلم ١٦٢ .

(٤) متفع اللون: متغير اللون .

(٥) سيرة الرسول لأبي عمار ٦١ - ٦٢ .

(٦) الرحيق المختوم ص ٦٤ .

وهو غلام جفر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأنا، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

توفي عبد المطلب ورسول الله ﷺ ابن ثمان سنين<sup>(١)</sup>.

### إِلَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ

عندما أحس عبد المطلب بدنو أجله أوصى ولده أبا طالب بكفالة الحبيب ﷺ وأوصاه به خيراً، وذلك لأن عبد الله - والد الرسول ﷺ - وأبا طالب أخوان لأب وأم، فأمهما هي فاطمة بنت عمرو بن عائد، وكذلك فإن عبد المطلب كان يشعر بأنه لن يحافظ على الحبيب ﷺ ويحوطه بالرحمة التي تتدفق من قلبه والحنان إلا فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب لما كان يشعر من الرحمة التي تتدفق من قلبها..

كان أبو طالب رحيماً به ﷺ وكان رزقه قليلاً، فعمد النبي ﷺ إلى مساعدته، فاشتغل برعى الأغنام في شعاب مكة وفجاجها، وقد ثبت في الحديث قيامه بهذا العمل حيث روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ، فَقَالَ: «نَعَمْ كُنْتُ أُرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»<sup>(٢)</sup>.

ولمّا عاش الحبيب ﷺ في بيت عمه دخلت البركة لأول مرة هذا البيت، وبخاصة في طعام الأولاد إذا أكل معهم النبي ﷺ فكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا وتبقى من طعامهم..

وكانت فاطمة بنت أسد ترعاه منذ طفولته إلى أن تزوج السيدة خديجة رضي الله عنها، وكان النبي يشعر أن الله عوضه عن موت أمه بتلك الأم الرحيمة<sup>(٣)</sup>.

### بِحَيْرَى الرَّاهِبِ:

ولمّا بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة، قيل: وشهرين وعشرة أيام - ارتحل به أبو طالب تاجراً إلى الشام؛ حتى وصل إلى بُصْرَى وهي معدودة من الشام، وقصبة

(١) ابن هشام ١ / ١١٨ .

(٢) البخاري (٤ / ٥١٦)، مسلم (١ / ٦٠٥) .

(٣) سيرة الرسول أبو عمار (٦٤ - ٦٦) مختصراً .

لحوران ، وكانت فى ذلك الوقت قصة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان ، وكان فى هذا البلد راهب عرف ببجيرى ، واسمه فيما يقال: جرجيس ، فلما نزل الركب خرج إليهم وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك فجعل يتخللهم ؛ حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: هذا سيد العالمين .. هذا رسول رب العالمين .. هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال له أبو طالب وأشياخ قريش: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجداً ولا يسجدان إلا لَنبِيِّ ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة .. إنا نجده فى كتبنا ثم أكرمهم بالضيافة ، وسأل أبا طالب أن يرده ولا يقدم به إلى الشام ؛ خوفاً عليه من الروم واليهود .. فبعثه عمُّه مع بعض غلمانهِ إلى مكة<sup>(١)</sup> ، وقيل: إن أبا طالب بعث معه أبا بكر وبلا<sup>(٢)</sup>.

### حَرْبُ الْفُجَّارِ:

وفى السنة العشرين من عمره ﷺ وقعت فى سوق عكاظ حرب بين قريش - ومعهم كنانة - وبين قيس عيلان تعرف بحرب الفجار ، وسببها: أن أحد بنى كنانة اسمه البراض اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان ، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان وكان قائد قريش وكنانة كلها حَرْبُ بنِ أُمَيَّة ؛ لمكانته فيهم سناً وشرفاً ، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة ؛ حتى إذا كان فى وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس ؛ ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يمحسوا قتلى الفريقين ؛ فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد ، فاصطلحوا على ذلك ووضعوا الحرب ؛ وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر ؛ وسميت بحرب الفجار ؛ لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها<sup>(٣)</sup> وقد شهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم ؛ أخرجهم أعمامه معهم .. وقال رسول الله ﷺ: «كنت أنبل على أعمامى» أي: أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها<sup>(٤)</sup>.

(١) الرحيق المختوم ص ٦٥ .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦٨ .

(٣) الرحيق المختوم ص ٦٥ - ٦٦ .

(٤) ابن هشام ١ / ١٢٤ .

## حِلْفُ الْفُضُولِ

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام تداعت إليه قبائل من قريش بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي لسنته وشرفه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجردوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه . . وكانوا على من ظلمه ؛ حتى ترد عليه مظلمته ، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ ؛ وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت» .

وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها ، ويقال في سبب هذا الحلف: إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة واشتراها منه العاص بن وائل السهمي ، وحبس عنه حقه ؛ فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوم وجمحاً وسهماً وعدياً ، فلم يكثرثوا له ، فعلا جبل أبي قبيس ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعاً صوته ، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال: ما لهذا مترك ؛ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول ، فعددوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه حق الزبيدي .

## اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْصِمُ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ أَقْدَارِ الْجَاهِلِيَّةِ :

لقد عصم الله (عز وجل) نبيه ﷺ من أقدار الجاهلية ؛ لتكون حياته صفحة بيضاء ليس فيها شائبة ، فهو القدوة للكون كله في كل مكان وزمان .

فمن ذلك أن الله - عز وجل - صانه عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام وأنه ﷺ لم يكن يشرب الخمر ، ولا يأكل مما ذبح على النصب وعن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ثم ما هممت به حتى أكرمني برسائه قلت ليلة للغلام الذي يرعى الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي؛ حتى أدخل مكة، وأسمر بها كما يسمر الشباب فقال: أفعلم، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة؛ فجلست أسمع فضرب الله على أذني، فممت فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي فسألني

فأخبرته ثم قلت: ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة<sup>(١)</sup> ثم ما هممت بسوء<sup>(٢)</sup>.

### تِجَارَتُهُ بِمَالِ خَدِيجَةَ وَزَوَاجُهُ مِنْهَا:

قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في ما لهم وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة؛ حتى قدم الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت الشجرة قط إلا نبي.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلًا إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلالانه من الشمس وهو يسير على بعيره<sup>(٣)</sup>.

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه ﷺ فتأتمته أن يتزوج خديجة فرضى بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوا إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين، وأصدقها عشرين بكرًا، وكان سنُّه إذ ذاك خمسًا وعشرين وسنُّها أربعين سنة، وكانت - يومئذ - أفضل نساء قومها

(١) رواه الطبري وغيره وصححه الحاكم وتبعه الذهبي وضعفه ابن كثير.

(٢) سيرة الرسول لأبي عمار ٦٨ - ٦٩، الرحيق المختوم ٦٨ - ٦٩.

(٣) ابن هشام ١ / ١٢٥.

نسباً وثروة وعقلاً، وهى أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم<sup>(١)</sup>.

### اشْتِرَاكُهُ ﷺ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ:

قبل بعثة النبي ﷺ بخمسة سنين جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها؛ حرصاً على مكانتها واتفقوا على ألا يدخلوا فى بنائها إلا طيباً، فلا يدخلون فيها مهر بغية ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي فأخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم ناحية الركنين، ولما لم يصبه شيء تبعه الناس فى الهدم فى اليوم الثانى، ولم يزالوا فى الهدم؛ حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ فى البناء فجزأوا الكعبة وخصصوا لكل قبيلة جزءاً منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها وتولى البناء بناء رومى اسمه: باقوم.

ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فىمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمساً، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه؛ حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذ بيده، فوضعه فى مكانه.

فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا بُنِيَ الْكَعْبَةُ دَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يُنْقَلَانِ الْحِجَارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ<sup>(٢)</sup>: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنَ الْحِجَارَةِ؛ فَحَرَّ إِلَى الْأَرْضِ وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «إِزَارِي إِزَارِي فَسُدُّ عَلَيْهِ إِزَارَةَ» وفى رواية: فما رؤيت له عورة بعد ذلك<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن هشام / ١ - ١٢٥ .

(٢) (صحيح) البخاري ٣٨٢٩ .

(٣) الرحيق المختوم ٦٧ - ٦٩ .

## الْعِبْرُ وَالْعِظَاتُ:

تنطوي هذه الفترة من حياته ﷺ على العديد من الحكم والعبر منها:

١- ليس من قبيل الصدفة أن يولد ﷺ يتيماً، ثم لم يلبث أن فقد جده أيضاً، فينشأ النشأة الأولى من حياته بعيداً عن تربية الأب ورعايته محروماً من عاطفة الأم وحنوها .

لقد اختار الله - عز وجل - لنبيه ﷺ هذه النشأة لحكم باهرة؛ لعل من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة القلوب أو إيهام للناس بأن محمداً ﷺ إنما رضع لبان دعوته ورسالته التي نادى بها منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده، ولم لا؟ إن جده عبد المطلب كان صدرأ في قومه، فلقد كانت إليه الرفاة والسقاية<sup>(١)</sup>.

ومن الطبيعي أن يربي الجد حفيده أو الأب ابنه على ما يحفظ لديه هذا الميراث . .

- ولَمَّا توفى جده وانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب الذي امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات؛ كان من تنمة هذه الحكمة أن لا يسلم عمه؛ حتى لا يتوهم أن لعنه مدخلاً في دعوته، وأن المسألة مسألة قبيلة وأسرة وزعامة ومنصب .

٢- تُعَدُّ حادثة شق الصدر التي حصلت له ﷺ أثناء وجوده في مضارب بنى سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل؛ وليست الحكمة من هذه الحادثة والله أعلم؛ استئصال غدة الشرِّ في جسم رسول الله ﷺ؛ إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم أو علقته في بعض أعضائه؛ لأمكن أن يصبح الشرير خيراً بعملية جراحية، ولكن يبدو أن الحكمة هي إعلان أمر الرسول ﷺ وتهيؤه للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس وتصديقهم برسالته؛ إنها إذا عملية تطهير معنوي؛ ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي؛ ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم<sup>(٢)</sup>.

٣- وفي رعى الغنم ما فيه من تهيئة الله - سبحانه وتعالى - لنبيه لتلقى الرسالة والقيام بأمر الدعوة؛ وفي حديث النبي ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ» يبين أنه ما من

(١) شيء كانت قريش تتعاون فيه فيجمعون مالا كثيراً؛ يشتركون به طعاماً ونيذاً ويطعمون الناس ويسقونهم أيام الحج .

(٢) فقه السيرة للبوطي ٥٠ - ٥٢ .

نبى إلا ورعى الغنم؛ ولعل الحكمة فى إلهام الأنبياء من رعى الأغنام قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكفلونه من القيام بأمر أمتهن، ولأن فى مخالطتها ما يُحصَلُ لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقتها فى المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح؛ ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق؛ وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقتها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها فجبروا كسرهما، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلفوا القيام بذلك من أول وهلة لِمَا يحصل لهم من التدرج على ذلك برعى الغنم، وخُصَّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقتها أكثر من تفرق الإبل والبقر؛ لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقتها فهى أسرع انقياداً من غيرها<sup>(١)</sup>.

وفى إقباله ﷺ على رعى الأغنام لقصد اكتساب القوت والرزق ثلاث دلالات مهمة:

١- الذوق الرفيع والإحساس اللذان جعل الله - تعالى - بهما نبيه محمدًا ﷺ، لقد كان عمه يحوطه بالعبارة التامة، وكان له فى الحنو والشفقة كالأب الشفوق، ولكنه ﷺ ما إن أنس فى نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤونة الإنفاق عن عمه، وربما كانت الفائدة التى يجنيها من وراء عمله الذى اختاره الله له فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبى طالب، ولكنه على كل تعبير أخلاقى رفيع عن الشكر، وبذل اللوسع، وشهامة فى الطبع، وبر فى المعاملة.

٢- وتتعلق ببيان نوع الحياة التى يرتضيها الله - تعالى - لعباده الصالحين فى دار الدنيا، لقد كان سهلاً على القدرة الإلهية أن تهين للنبي ﷺ وهو فى صدر حياته من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعياً وراء القوت، ولكن الحكمة الإلهية تريد منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدم يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبنى جنسه، وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستلق على ظهره دون أن يرى أى تعب فى سبيله، ودون أن يبذل أى فائدة للمجتمع فى مقابلته.

(١) سيرة الرسول لأبى عمار ٦٤ - ٦٥.

٣- إن صاحب أى دعوة، لن تقوم لدعوته أى قيمة فى الناس إذا ما كان كسبه وورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم .

ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد فى معيشته على جهده الشخصى أو مورد شريف لا استجداء فيه ؛ حتى لا تكون عليه لأحد مئة أو فضل فى دنياه فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق فى وجهه غير مبال بالموقع الذى قد تقع من نفسه .

فقد أراد الله - عز وجل - أن لا يكون فى شيء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أى تأثير سلبى ، فيما بعد البعثة <sup>(١)</sup> .

### نُزُولُ الْوَحْيِ فِي غَارِ حِرَاءَ

وَلَمَّا قَارَبَتْ سَنَةَ الْأَرْبَعِينَ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، فَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَهْجُرُ مَكَةَ كُلَّ عَامٍ ؛ لِيَقْضَى شَهْرَ رَمَضَانَ فِي غَارِ حِرَاءَ عَلَى مَسَافَةِ بَضْعَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْقَرْيَةِ الصَّاخِبَةِ فِي رَأْسِ جَبَلٍ مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ الْمَشْرِفَةِ عَلَى مَكَةَ وَالَّتِي يَنْقَطِعُ عِنْدَهَا لِعَوِ النَّاسِ وَحَدِيثِهِمُ الْبَاطِلِ ، وَيَبْدَأُ السَّكُونَ الشَّامِلَ الْمُسْتَعْرِقَ فِي هَذِهِ الْقَمَةِ السَّامِقَةِ الْمَنْزُومَةِ ، كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَأْخُذُ زَادَ اللَّيَالِي الطَّوَالَ ثُمَّ يَنْقَطِعُ عَنِ الْعَالَمِينَ مَتَجِّهًا بِفَوْادِهِ الْمَشُوقَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ! .

وفي هذا الغار النائي كان محمد ﷺ يتعبد ، ويصقل قلبه ، وينقى روحه ويقترّب من الحق جهده ويتبعد عن الباطل وسعه ؛ حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية انعكست بها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة ، فأمسى لا يرى رؤيا إلى جاءت كفتلق الصبح <sup>(٢)</sup> .

### بَدَأَ الْوَحْيُ :

روى الإمام البخارى عن السيدة عائشة نصف كيفية بدء الوحي:

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ <sup>(٣)</sup> : «أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءَ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ

(١) فقه السيرة للبوطي ٥٤ - ٥٥ .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٨٠ مختصراً .

(٣) (صحيح) البخاري ٤ .

إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِدَبِّكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: «اقْرَأْ قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِي قَالَ: فَأَخَذَنِي فَعَطَنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِي فَأَخَذَنِي فَعَطَنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِي فَأَخَذَنِي فَعَطَنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ (العلق: ١ - ٣) فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فَوَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَزَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوْعُ فَقَالَ لَخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبِيرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ وَتَحْمِلَ الْكُلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ﴿١﴾ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَنْتَ بِهِ وَرَقَّةُ بِنْتُ نُوْفَلٍ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنِ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَصَرَّفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا بَنَ عَمِّ اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أُخْيَكِ فَقَالَ لَهُ وَرَقَّةُ: يَا بَنَ أُخْيِ مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَّةُ: هَذَا التَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ﴿٢﴾ لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْمُخْرِجِي هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرُكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْسَبْ وَرَقَّةُ أَنْ تُوْفِّي وَفَتَرَ الْوَحْيَ ﴿٣﴾ .

### فَتْرَةُ الْوَحْيِ:

اختلف في الزمن الذي فتر فيه الوحي فقبل: ثلاث سنوات ؛ وقيل أقل من ذلك ؛ والراجح ما رواه البيهقي من أن المدة كانت ستة أشهر<sup>(٤)</sup> .

وعن جندب بن عبد الله الجبلي رضى الله عنه قال: (اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثا فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا تركك ؛ فأنزل الله ﷻ ﴿وَالصُّحْحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الصُّحْحَىٰ: ١ - ٤] .

(١) الكل: الثقل ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك ، كسب المعدوم: هو إعطاء الفقير تبرعا ، النوائب: الحوادث .

(٢) جذعا: شابا قويا .

(٣) فقه السيرة للبطوني ٦٦ - ٦٧ ، الرحيق المختوم ٧٥ - ٧٦ .

(٤) وذكر ابن هشام أن فترة الوحي كانت أياما .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فِينَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٍ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجِئْتُ مِنْهُ رُغْبًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَادْتَرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْرُ ① قُرْآنًا نَذِيرًا ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَيَبَارِكْ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤﴾ [المدثر: ١-٥] قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَاةُ وَهِيَ الْأَوْتَانُ .

### كَيْفَ كَانَ يَأْتِي الْوَحْيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟

لقد ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - مراتب الوحي الذي كان يتنزل على النبي ﷺ فقال: وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفْثٌ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَتَسْتَوْعِبَ أَجْلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَهْمَلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِطَاءَ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِعِصْيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَبَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» (١) .

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه؛ حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك؛ حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البارد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان ركبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذه زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ② إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ① عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪ أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَابَرَىٰ

﴿١٣﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١١﴾ عِنْدَ حَاجَةِ الْوَاوِيِّ ﴿١٥﴾ إِذِيفْتَنَى السِّدْرَةَ مَا يَفْتَنَى ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾

[النجم: ٢ - ١٦].

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن، وثبوتها لدينا ﷺ هو في حديث الإسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب، وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### حَيَاةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قِلَالِ النَّبُوَّةِ

تنقسم حياة رسول الله ﷺ بعد أن شرفه الله بالنبوة والرسالة إلى عهدين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهما:

العهد المكي: ثلاث عشرة سنة تقريباً .

العهد المدني: عشر سنوات كاملة .

ثم يشتمل كل من العهدين على عدة مراحل لكل مرحلة منها خصائص تمتاز بها عن غيرها .

ويمكن تقسيم العهد المكي إلى ثلاث مراحل:

١- مرحلة الدعوة السريّة ثلاث سنوات .

٢- مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة: من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة .

٣- مرحلة إعلان الدعوة خارج مكة وفشوها فيهم من أواخر السنة العاشرة من النبوة وقد شملت العهد المدني وامتدت إلى آخر حياته ﷺ .

أما مراحل العهد المدني فسيجيء تفصيلها في موضعه<sup>(١)</sup> .

#### المرحلة الأولى: الدعوة سرا

ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ مِنَ الدَّعْوَةِ السَّرِيَّةِ:

بدأ النبي ﷺ يستجيب لأمر الله بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر - فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ؛ ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرا حذرا من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنيتها فلم يكن ﷺ يظهر الدعوة في المجالس العمومية لقريش<sup>(٢)</sup> .

#### الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على الصّق الناس به من

(١) الرحيق المختوم ص ٧٣ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٧٥ .

أهل بيته وأصدقائه فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إليه كل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه ، يعرفهم بحب الحق والخير ، ويعرفونه بتحرى الصدق والصلاح ؛ فأجابه من هؤلاء جمع عرفوا في التاريخ الإسلامى بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ومولاه زيد بن حارثة وابن عمه علي بن أبي طالب وكان صبياً يعيش في كفالة الرسول ﷺ وصديقه الحميم أبو بكر الصديق أسلم هؤلاء في أول يوم للدعوة .

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام وكان رجلاً مألُفاً محبباً سهلاً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ، ويجلس إليه فأسلم بدعوته عثمان بن عفان والزبير بن عوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ؛ فكان هؤلاء نفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطلبة الإسلام<sup>(١)</sup> .

#### دَارُ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ:

ثم لَمَّا أَرَبَى الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى الثَّلَاثِينَ ؛ مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ - اخْتَارَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَارَ أَحَدِهِمْ وَهُوَ الْأَرْقَمُ بْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ ؛ لِيَلْتَقَى بِهِمْ فِيهَا لِحَاجَاتِ الْإِرْشَادِ وَالتَّعْلِيمِ وَكَانَتْ حَصِيلَةَ الدَّعْوَةِ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ مَا يَقَارِبُ أَرْبَعِينَ رَجُلًا وَامْرَأَةً دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ عَامَتِهِمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْأَرْقَاءِ وَمَنْ لَا شَأْنَ لَهُ بَيْنَ قَرِيْشٍ<sup>(٢)</sup> .

#### الصَّلَاةُ:

وَمَنْ أَوَاتِلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْأَمْرَ بِالصَّلَاةِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ ﷺ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ يَصَلِّي قَطْعًا وَكَذَلِكَ أَصْحَابَهُ ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَ هَلْ فَرَضَ شَيْءٌ قَبْلَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ مِنَ الصَّلَاةِ أَمْ لَا؟ فَقِيلَ: إِنْ الْفَرَضُ كَانَتْ صَلَاةٌ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا . . انتهى .

وروى الحارث بن أبي أسامة من طريق ابن لهيعة موصولاً عن زيد بن حارثة أنَّ رسول الله ﷺ في أول ما أوحى إليه أتاه جبريل فعلمه الوضوء ؛ فلما فرغ من الوضوء

(١) الرحيق المختوم ص ٨٠ .

(٢) فقه السيرة للبطوني ص ٧٦ .

أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه ، وقد رواه ابن ماجه بمعناه وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس: وكان ذلك من أول الفريضة .

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعلياً يصليان مرة فكلهما في ذلك ، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات ، وهكذا مرّت ثلاثة أعوام والدعوة لم تنزل مقصورة على الأفراد ولم يجهر بها النبي ﷺ في المجمع والنوادي إلا أنها عرفت لدى قريش ؛ وفشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس ، وقد تنكر له بعضهم أحياناً واعتدوا على بعض المؤمنين إلا أنهم لم يهتموا به كثيراً ؛ حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم ولم يتكلم في آلتهم<sup>(١)</sup> .

### العبر والعظات:

أهم الله الرسول ﷺ ؛ والإلهام للرسول نوع من الوحي إليه أن يبدأ الدعوة في فترتها الأولى بسريّة وتكتم ، وأن لا يلقي بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصفي لها ويؤمن بها ؛ تعليماً للدعاة من بعده وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحليظة والأسباب الظاهرة ، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده . . . وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفاعلية في تصويره وتفكيره ؛ فهذا يחדش أصل الإيمان بالله تعالى فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا درس لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة حسبما تقتضيه الظروف وحال العصر الذي يعيشون فيه بما يتفق مع مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية .



(١) الرحيق المختوم ٨١ - ٨٢ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ص ٧٦ .